التاريخ عند ابن خلدون وما ضمَّنه من نظريات اجتماعية إسلامية وعربية بنَّاءة ومتجددة

أ. كباس يمينة/ المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة / الجزائر

ملخص:

يعتبر عبد الرحمان ابن خلدون من أعلام ومشاهير الفكر العربي الإسلامي،هَندس من خلال دراسته للتاريخ عِلماً جديدا،أسماه علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري،شرح من خلاله كيف أن تحليل الحادثة التاريخية بكل حيثياتها،يُفضي إلى فهم دقيق للظواهر الاجتماعية السابقة، لأمم أنشأت دُوَلاً وحضارات عمَّرت ردحا من الزمن،وقياسا على الحياة العامة لهؤلاء نبني نظرياتنا الاجتماعية الراهنة، التي من شأنها الحفاظ على هيكلة العمران البشري الحالي،وضمان أعلى قدر ممكن من العيش الكريم لأفراده،خاصة في العالم العربي الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: التاريخ،الاجتماع الإنساني،العمران البشري، الظواهر الاجتماعية، النظريات الاجتماعية.

Abstract :

Abd erahman ibn khaldoun was considered one of the very well_know icons of the Islamic and Arabic thoughts, thanks to his study of history he established a new science named humans sociology through his study he managed to analyse the historical incident and every aspect of it which led us to the pressiced

comprehension of passing communities who founded many civillizations that lasted for a very long time, these civllizations which we took most of our current sociology theories from guarantee a better life for all communities especially for the Arabic Islamic world.

Keywords: the history, the historical incident ,Social theories,Social phenomenon, Human Urbanism, Humanitarian meeting.

مقدمة:

تمردا منا على التقليد الذي تنتهجه معظم الدراسات في التعريف بالشخصيات المحورية لها،ارتأينا عدم التطرق إلى التعريف بعبد الرحمان ابن خلدون،لما لهذا الرمز العلمي من ذياع صيت في أرجاء العالم؛لكننا سنحاول عبر هذه الأسطر التلميح إلى جوانب من عصارة ذهنيته، المعروفة لدى أتباعه بالنظريات بالخلدونية،والتي ترسخت في عدة علوم قديمة وحديثة،على غرار علمي التاريخ والاجتماع،وما حمَلَه هذا المؤرخ والمفكر من نظريات اجتماعية عربية إسلامية صرفة،بلغها بنباهة فكره ورجاحة عقله،الذي كان منصرفا وقتها إلى البحث في كنه ماهية التاريخ،لكنه تحرر بطريقة أو بأخرى من المتلازمة التاريخية التقليدية للحدث والمرتبطة أساسا بالإطار الزمكاني له،فأسقط ما توصل إليه عبر مراحل بحثه،في تاريخ الأمم والأقوام العربية الإسلامية خاصة،على تجربته الاجتماعية المستوحاة من أغوار الواقع ،ليخلص في الأخير إلى اكتشاف نظريات تؤسس لعلم جديد،

يهتم بدراسة الظاهرة الاجتماعية بعيدا عن قالبها التاريخي،فكان بذلك ابن خلدون هو واضع نواته الأولى ورائده ومهندسه ذي الصبغة العربية الإسلامية-دونما تخطيط منه لذلك- وعُرف هذا العلم الجديد أو الفن، بعلم الاجتماع الإنساني والعمران البشري،الذي انبثقت عنه عدة نظرياته؛ولم يكن هذا الفن وحده ما انبثق عن غوص ابن خلدون في غيابة التاريخ، وإنما تجلى لابن خلدون من خلال ذلك عدة نظريات تعالج وتدرس المجتمع العربي الإسلامي من نواحٍ شتى،غفل عنها غيره ممن عاصره وخاض غمار التاريخ،أو صنعة التأليف التاريخي خاصة-إن لم نقل تغافلوا عنها مراعاة لطبيعة وخصوصية هذا المجتمع؛وانطلاقا من كون التاريخ والبحث في كنهه وفحواه سَبَبًا في ولوج ابن خلدون إلى علم الاجتماع والتنظير له،وبتتبع مراحل بحثه في ماهية التاريخ،وما توصل إليه من نتائج تنطبق على ماضي وحاضر المجتمع العربي الإسلامي،وحتى تستشرف مستقبله انطلاقا من تاريخه،وجب علينا محاولة الكشف عن حيثيات هذا التوسع العلمي لدى ابن خلدون،في مزاوجته بين التاريخ والاجتماع والتنظير لكليهما فكيف تَمَّ له ذلك،ثم ما هي أهم تلك النظريات التي خَلُصَ إليها خاصة ما كان منها في علم الاجتماع ،وما مدى تطابقها مع الطابع الاجتماعي الإسلامي،سواء في العصر الوسيط- وهو عصر ابن خلدون—أو في عصرنا الحالي إن تمَّ لها الامتداد والسيرورة التاريخية والاجتماعية في مجتمعاتنا العربية الإسلامية الراهنة؟

صلب البحث:

ابن خلدون عالم عربي مسلم،ذاد بقلمه عن حوزة الإسلام ،وقدَّم لأمته الكثير من النظريات الاجتماعية،التي أفاد منها حتى غير المسلمين بعدما تُرجم تراثه إلى لغاتهم،إذ أنتج لنا علماً جديدا لم يُسبق إليه،ولم يكن فيه مقلِّدا لغيره "..كشف الله لي هذا العلم دون عون أرسطو أو أي حكيم أعجمي"[1]،بمعنى أنه لم يستعن في بناء علمه الجديد بمنطق صوري إغريقي،ولا بآراء غربية مسيحية،وإنما كان منطقه وفكره نابعا من واقع عربي إسلامي،اهتدى إليه من نتاج معايشته لمجتمعات ذات إديولوجيات وذهنيات مختلفة،عربية وبربرية وحدتها راية الإسلام،وكان ابن خلدون في إطار ذلك محللا وناقدا لمختلف الظواهر التاريخية والاجتماعية،التي عايشها أو بلغته أخبارها من سابقيه من المؤرخين،فقَولب آراءه حول تلك الظواهر المختلفة صائغا إياها في نسق قانوني،يجعل من لبِّها قاعدة نظرية لعلمه الجديد،القائم على الاجتماع الإنساني والعمران البشري،والذي لم يكشف عنه منفردا وبشكل مباشر،وإنما أدرجه ضمن فصل"الصنائع تكسب صاحبها عقلا"، وأخفى موضوعه ومسائله في شكل مقدمة طويلة لكتاب تاريخي ضخم الأجزاء،سمَّاه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر"،ولعل ابن خلدون نهج على ذلك لسببين اثنين،أولهما كونه فقيها عربيا إسلامي،لذا فمن المتوقع أن يكون كل ما يكتبه يمُتُّ إلى علوم الفقه بصِلة،وخشي أن يُساء فهمه من معاصريه من الفقهاء والعلماء،فجنَّب نفسه ردت فعلهم،أما السبب الثاني

فإنما يرجع لإيمانه العميق بالتدرج في تقديم الجديد،"وعدم الشذوذ عن المألوف والمعتاد،وإلا رُميَّ بالجنون والوسواس والخروج من العوائد دفعة"[2].

عالج ابن خلدون مختلف الظواهر الاجتماعية والتاريخية من منطلق إسلامي محض كما سلف لنا الذكر،لذا فإن التعمق فيما جاء به يكشف عن أصل قرآني أجاد ابن خلدون في حبك أفكاره من خلاله،لذا فإننا نجده يغوص في عمق مختلف ظواهر الاجتماع الإنساني عن علم دقيق بحيثياتها وتفاصيلها،وحتى نتائجها معتمدا في ذلك على دقة فهمه للنص القرآن فكان بذلك مقتبسا، ثم قياسيا في قياس أحداث التاريخ الإسلامي حاضرها بغائبها، فهو مثلا عندما يتحدث عن العصبية التي تمثل عصب أي ملك أو سلطان،ونواة أي دولة على اختلاف أنواعها-أي العصبية-،يستشهد بالقرآن الكريم ومن آياته في ذلك قوله تعالى:" وَلَوْ دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينْ"[3]،وقوله تعالى أيضا:" قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونْ"[4]،وقد استشهد هنا بالآية الأولى لبيان فائدة العصبية،وبالآية الثانية لبيان أثرها أي الرابطة الاجتماعية والألفة الجامعة،في قوة الجماعة واشتداد شوكتها[5]،ومن هنا يتضح لنا أن ابن خلدون إنما استقى مَعينه في فهم الظواهر الاجتماعية،وصياغة نظرياتها بحجج وبراهين مؤكدة،من القرآن الكريم وما جادت به آياته،ثم من تحليله للأحداث التاريخية السابقة لعصره وحتى المعاصرة له،مقتديا في ذلك بسابقيه من علماء المسلمين

الذين استعانوا بالقرآن في مجال العلوم الطبيعية، مطبقا نفس النهج على الظواهر الاجتماعية،إذ كان يرى أن علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري إنما هو علم الكشف عن سنن الله الاجتماعية،أي قوانين الله في تعامل الناس بعضهم مع بعض،في كل صورة من صور التجمع البشري.

كان القرآن الكريم أول مصادر ابن خلدون في فهم وتحليل الظاهرة الاجتماعية،أما مصدره الثاني فكان الأحداث التاريخية بحيثياتها الزمكانية المختلفة، فالمتمعن لتعريف ابن خلدون للتاريخ يعلم أنه إنما كان يُعرِّف نتاج السابقين وأخبار الماضي بمنظور اجتماعي محض،يطرح في ثناياه ظروف وكيفيات وكذا نتائج الظاهرة الاجتماعية،دون أن يصرِّح بذلك وإنما دسَّه في تعريف عام لعلم التاريخ،إذ يقول في مقدمته:"...فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال،وتُشدّ إليه الركايب،والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة[6] والأغفال[7]،وتتنافس فيه الملوك والأقيال[8]،وتتساوى في فهمه العلماء والجُهَّال،إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول،والسوابق من القرون الأول،تنمق لها الأقوال وتصرف فيها الأمثال،وتطرف بها الأندية إذا غصَّها الاحتفال،وتودى لنا شأن الخليقة كيف تقلَّبت بها الأحوال،واتسع للدول النطاق فيها والمجال،وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال،وحان منهم الزوال،وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكاينات ومباديها دقيق وعلم بكيفيات الوقايع وأسبابها عميق،فهو لذلك أصل في الحكمة عريق وجدير

بأن يُعد في علومه وخليق[9]" [10]، في هذا القول لابن خلدون تعريف ظاهر للتاريخ،ودعوة مبطنة للتدقيق في أخباره ،بغية استكشاف كُنْهُ ولُبُّ الظاهرة الاجتماعية على اختلاف حيثياتها من خلاله[11]،ثم الإفادة من نتائجها وحاصلاتها،ولعله الهدف من إنشاء علم الاجتماع،بما يُرتجى منه(إصلاح المجتمع والعمل على تنميته وإزهاره)،فلا نَظُنُنَا نحيد عن جادة الصواب إذا ما قلنا أن الكتابة التاريخية عند ابن خلدون[12] كانت سببا في إطلاقه لعلم الاجتماع الإنساني والعمران البشري،انطلاقا من بحثه في علل وأسباب الأحداث التاريخية،خاصة بالمغرب الإسلامي الوسيط،وما واكب من دُوَله التي كانت تقوم ردحا من الزمن لتتداعى بعد ذلك،محاولا الكشف من خلال ظواهرها الاجتماعية ومحللا لظواهرها التاريخية،عن أهم العلل وراء قيامها ثم زوالها وما يجب الاعتبار به من ذلك،بعد تحليلها وفق قواعد علمية إسلامية تضمن التخطيط السليم،لتنمية مجتمع إسلامي قويم،وتنوء به عن دواعي الضعف والانحلال التي تحتم زواله كنتيجة منطقية لذلك.

من الظواهر الاجتماعية التي عالجها ابن خلدون في قَولبة تاريخية لتفاصيلها،العصبية والملك والدين... وغيرها[13]،وهي الأسباب والأركان التي تقوم وتشتد بها الدولة،وتزيد من سلطانها إذا ما تَدَعَّمَ الملك بالعصبية الدينية،وهي أنفذ وأقوى أنواع العصبية،لأنها أشمل من أي عصبية عرقية أو جنسية ممكن أن تربط أفراد المجتمع الواحد داخل الدولة الواحدة،"فنظرية العصبية عند ابن خلدون هي المحور الأساسي الذي يفسر من خلاله

قيام الدولة ونشوئها،بل حتى الدعوات الدينية لا تنجح إلا بالعصبية كما يذكر،ويقصد بالعصبية ذلك التكتل القوي للمطالبة بالملك،وغالبا ما يقوم هذا التكتل على القبائل والعشائر المتحالفة أو القبيلة القوية،وقد يقاس عليه أي تكتل يتحد في الوجهة والهدف"[14]،وهذه النظرية برهنت مدى صحتها وإجادة ابن خلدون في صياغتها بما يتطابق مع الواقع،خاصة إذا ما ربطناها بتاريخ دول المغرب الإسلامي في العصر الوسيط،وهي العيِّنة التي دَرس من خلالها ابن خلدون هذه الظاهرة ثم نَظَّرَ لها بحكم معاصرته لبعض دوله، الملك وما تعلق به من قوة وضعف وأسبابهما أيضا تطرق لهما ابن خلدون،فالأمة المغلوبة على أمرها من غيرها،والتي لا تجمع أفرادها عصبية دينية قوية،وإذا ما استقام لها الملك بعد قيامه مستندا على داعم عرقي قبلي،ثم مالت إلى الدعة والترف،فإن ذلك من علامات قرب فناءها،فالدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك إنما أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق،"...إن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا،حصل التنافس ونشأ الخلاف،فإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل،وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقلَّ الخلاف،وحسن التعاون والتعاضد،واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة"[15]،ولنا في صفحات التاريخ التي تروي عن الدولة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم،ثم في عهد خلفائه الراشدين خير مثال على ما جاء به ابن خلدون في هذا السياق،فالاجتماع الديني كأحد أنواع العصبية الوثيق،هو سبب رئيس في قيام أيُّما دولة ثم اشتدادها وقوتها،خاصة إذا ما تدعمت بوازع عرقي قبلي،فإن ذلك يزيد من عمرها،وإن كان حدد لكل دولة عمراً

طبيعيا كأعمار البشر،فهي تبدأ بالنمو ثم مرحلة القوة ثم الهرم وقرب الزوال بعد ضعفها،لكنه يستثني مجددا عامل العصبية كسبب في زوالها ليجعل منه سببا في علاجها من الهرم،وبذلك يكون عامل العصبية مهم في قيام الدول وكذا في الحفاظ عليها.

العمران[16] غايته الحضارة،كما الدولة غاية العصبية والحضارة غاية البداوة،لكن أهل العمران إذا ما حصل لهم الترف بهذه الحضارة،وزاد عمرانهم وكثر بذخهم فإنهم بذلك ينحتون ذكراهم على صفحات التاريخ لأن زوالهم قد اقترب،وهي الظاهرة الاجتماعية الأخرى التي بيَّنها ابن خلدون قائلا:"...فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف،وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات"[17]،أما في أسباب الترف وأشكال الكسب والمعايش فقد أفرد ابن خلدون لذلك بابا خاصا عالج فيه طرق الكسب،وتطرق فيه للظاهرة الاجتماعية من زاوية اقتصادية،ولم يغفل عن التعليم واعتبره إحدى الصنائع،ففصَّل في طرق اكتسابه وأحواله وما طاله من تقليد طغى على بعض التآليف فأُلصق ببعض العلوم ما ليس فيها،وعدم التحقيق والاختصار المجحف أخلَّ بما جاء به أهل المجال فظلمهم وظلم من جاء بعدهم بمنعه من الإفادة من تآليف السابقين.

نظَّرَ ابن خلدون لهذه الظواهر الاجتماعية[18] محاولا وضعها في نسق قانوني[19] اجتماعي[20]،تستفيد منه الأجيال الموالية،فبدأ بما أحدثه من علم،ألا وهو"فن العمران

البشري"،الذي يمكن أن نعرفه على أنه الحياة الاجتماعية للبشر في جميع ظواهرها،والتي قوامها المعاشرة بين بني الجنس[21]، بحيث يصبح اجتماعهم ضروري للنوع الإنساني،حتى تتم كلمة الله في استخلافهم بأرضه لإعمارها،بانتحالهم لطرق كسب ومعايش مختلفة،يجعل منها ابن خلدون قوة مادية-إن صح التعبير- من شأنها توجيه التاريخ البشري،باستحكام الحاجة الطبيعية للإنسان في المأكل والمشرب والعيش الآمن على أقل تقدير،في طرق عيشه وسعيه لاكتساب مقومات الحياة،خاصة ما كان ضروريا منها،وبالتالي تصبح الحاجة الطبيعية حافزا لنمو الحياة الاقتصادية ،ومؤثر فاعل في الطبيعة الإنسانية لهذا النسيج العمراني البشري،الذي يكون بذلك في حاجة ماسة إلى ملك وسلطان يكبح تجاوزات الطبيعة البشرية للمجتمع في إطار معين،وينظم بين حاجات مجتمعه الضرورية والكمالية ويوازن بينها،لأن بعض أفراده قد يتخطون الطرق المشروعة لكسب القوت وهو الحاجة الضرورية للفرد،لذا لابد من ملك يُسَطِّر أسلوب الحياة الاجتماعية داخل المجتمع الواحد،وما كانت نظرية ابن خلدون حول الحياة الاجتماعية للبشر،وكونها قوة أساسية خلاقة في المجتمع، يربط بين أفرادها العمل والتعاون المشترك،إلا بادرة فريدة من نوعها لم يسبقه إليها أحد ممن حدد المجتمع في إطاره الكلاسيكي كجماعة سياسية،ولا في إطاره الديني الثيولوجي للقرون الوسطى كجماعة دينية[22]،وإنما كجماعة فاعلة يربط أواصلها العمل المشترك لكسب القوت،والسعي للتطور باكتساب الكمالي بعد الضروري من الأمور.

ميَّز ابن خلدون في حديثه عن المجتمع وتطوره ثلاث حالات له،بداية بالتوحش والبدائية القريبة من أسلوب الحيوانات،ثم يتطور ليصبح في حالة عمران بدوي،إذ يكون للمجتمع فيها شبه تجمعات في مناطق بدوية،صعبة الطبيعة والتضاريس إلى حد ما" وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال"[23]،في المرحلة الثالثة يكون العمران الحضري،وهو ما يكون بالأمصار والقرى والمدن والمداشر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها،هكذا يقسم ابن خلدون مراحل التطور العمراني للمجتمع، والتي لا تزال سارية النهج حتى زمننا هذا في بعض المناطق من العالم الإسلامي خاصة في شقه المغربي،ويفسر هذا التقسيم بنظريته في التطور التاريخي للمجتمع،والتي أساسها اختلاف الحالة وأسلوب حياة الجماعة البشرية[24]،فنشاط أي جماعة وأسلوبها في العيش والكسب هو الذي يحدد نوع الصنعة التي ينتحلها الفرد،وحتى البيئة والوسط الذي يعيش فيه سواء بدوي أو حضري،وبهذه الصورة فإن تحول المجتمع البدوي إلى مجتمع حضري إنما هو نتيجة تطور معين في الأساس المادي للمجتمع،وهو ما يمكن أن نقيسه على واقعنا اليوم،فالدول التي لا تعتمد أشكال رزق حضرية وتكتفي بما هو تقليدي معروف منذ زمن،دون البحث عن التجدد في مواردها المادية تبقى متخلفة وبدائية بشكل ما –إن صح التعبير–(وهو حال معظم دول المغرب الإسلامي والجزائر خاصة)،أما الدول التي تعتمد على مقوماتها المختلفة فتجدد طاقاتها ومنابعها الاقتصادية،تتطور وتزيد من حضارتها،فرفاهية المجتمع وتطور الحياة الاجتماعية يتحددان بكمية الإنتاج

الاجتماعي،وبذلك يكون التاريخ الوسيط في آراء ابن خلدون قد رسم لوحة التاريخ المعاصر لواقعنا في أدق أشكالها استشرافا.

كان هذا المنطق الخلدوني حول التطور الاجتماعي انطلاقا من تطور احتياجات أفراد المجتمع،تمهيدا لنظرية أخرى صاغها في علم الاجتماع هي نظرية التطور التقدمي للمجتمع[25]،إذ نجد حسب ما جاد به ابن خلدون من آراء " التمدن غاية البدوي والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها"[26]،وفي هذا الترتيب أو التراتب الاجتماعي الذي صاغه ابن خلدون وضع لنا نظرية التطور التقدمي للمجتمع،بداية من مراحله السفلى إلى العليا،من البداوة وصولا إلى الحضارة والتحضر،وما يتزامن مع ذلك من تطور في النسيج العمراني البشري،متخذا من نوع النشاط الإنساني،وقوة التجمع البشري من أجل العمل المشترك والإنتاج الجماعي،عاملا هاما وباعثا قويا على التطور العام،فيكون المجتمع بذلك يملك قوة تطوره ونموه في لُحمته البشرية،ولعل الصين والمجتمع الصيني من أهم القوى البشرية التي برهنت للعالم في عصرنا هذا عن مدى أهمية العمل الجماعي والإنتاج المشترك في تطور المجتمع ونموه على جميع الأصعدة خاصة الاقتصادي منها.

يؤكد ابن خلدون أن التطور يتحدد بطموح الناس وسعيهم إلى الحياة الآمنة وإلى الترف،ويعتبر أن هذا السعي يظهر في الوقت نفسه الذي تظهر فيه بالمجتمع شروط أولية مادية لتوفير المدخرات،وعلى هذه الصورة يتوقف سعي الناس إلى حياة أفضل من تلك

الحالة المادية و يتوقف طموحهم،وبذلك يكون ابن خلدون قد بلغ ذروة الفهم الممكنة في عصره لقوانين تطور المجتمع،وتوصل إلى اكتشاف كثير من القوانين المهمة في التطور الاجتماعي،وإلى إيضاح ما جعله صاحب فضل على العلوم في تاريخ العصر الحديث[27]،وكل ذلك ضمن إطار علمي واضح يصطبغ بالصفة التاريخية الظاهرة،مع إبطان لما وراء البحث في علل وأسباب الحوادث التاريخية،وما تودي إليه من نتائج هي لُبُّ أو كُنه العلم الجديد.

كان التاريخ في العصر الوسيط يُصنَّف ضمن العلوم الدينية أو الأدبية،لكنه كان بعيدا نوعا ما عن صفة العلمية،إذ أنه لم يكن ذا قاعدة نظام علمي[28] واضحة المعالم،ما حمل ابن خلدون على محاولة تنظيم وتأطير الخبر التاريخي،ليأخذ صفة العلم الوضعي[29]،وقد قسَّم عمله ذاك إلى ثلاث مراحل،أولها نقد التعريف التقليدي للتاريخ من حيث كونه أخبار الماضين لا أكثر، تروي مآثرهم في نسق تسلسلي للأحداث"...اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة، شريف العايدة، إذ هو يقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم،والأنبياء في سيَّرهم،والملوك في دولهم وسياستهم،حتى تتم فايدة الاقتداء في ذلك،لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا..."[30]،حيث ركزَّ ابن خلدون في نقده على نبذ مجرد الاكتفاء بنقل الخبر التاريخي[31]، المبني على الملاحظة البسيطة الساذجة

المعنى،وإنما وجَّه عناية كل مؤرخ إلى ضرورة السعي للبرهنة عن مدى صدق تلك الأخبار،ومدى واقعية أحداثها،وبالتالي خلق ارتباطات واقعية لها مع الوقت الراهن قياسا على زمنها الماضي،"فإن فن التاريخ...في باطنه نظر وتحقيق،وتعليل للكاينات ومباديها دقيق،وعلم بكيفيات الوقايع وأسبابها عميق"[32]،إضافة إلى ضرورة استخدام بعض العلوم والمعارف الأخرى في تحليل الحادثة التاريخية،وأخذها بعين الاعتبار ليكون التعليل منطقيا وأكثر واقعية ومجانبة للخطأ،إذ يقول في ذلك:"...فهو(أي فن التاريخ) محتاج إلى مآخذ متعددة،ومعارف متنوعة،وحسن نظر وتثبيت،يفضيان بصاحبهما إلى الحق،وينكبان به عن المزلات والمغالط،لأن الأخبار إذا اعتد فيها مجرد النقل،ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران،والأحوال في الاجتماع الإنساني،ولا قيس الغايب منها بالشاهد،والحاضر بالذاهب،فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق"[33]،هذا النقد الذي قدمه ابن خلدون لتعريف التاريخ يرمي إلى إعادة النظر فيه،وضرورة تحليل تلك الروابط المختلفة للحادثة التاريخية مع الواقع-خاصة الاجتماعية منها- وإظهار ذلك المكنون الخفي لها.

المرحلة الثانية في محاولة ابن خلدون لإثبات علمية التاريخ-إن صح التعبير- تتمحور حول كيفية ربط الحادثة التاريخية بالواقع،وعن إمكانية وضعها من جديد داخل المجتمع الذي تنتمي إليه[34]،والتي ترتكز أساسا على دراسة العمران البشري وهيكلته،والذي يُعد لُبّ التاريخ وموضوعه الواجب الاهتمام به، ثم كمرحلة أخيرة دراسة أسباب تطور وقوة

المجتمع أو هذا النسيج العمراني الراهن،قياسا على سابقه والاعتبار من أحداث الماضي،وهي الغاية التي يجب من أجلها دراسة التاريخ،فبفضل نتائجها يمكن إثبات علمية التاريخ وقيمته الجمة في مَصَفِّ العلوم الأخرى،بإضفاء صفة الواقعية والتجدد عليه،ولا يتأتى ذلك طبعا دون الاستعانة بعلم الاجتماع،وهو ما جعل ابن خلدون ينشئ لنا هذا العلم،ويضع قواعده الأولى،ثم يُنَظِّر لعدة ظواهر اجتماعية فيه انطلاقا من نسقها التاريخي،مثبتا أصالة ومتانة الرابطة بين علمي التاريخ وعلم الاجتماع،والنتائج القيمة التي يمكن أن تُستفاد من الدراسة العميقة لهذه المتلازمة،ودورها في إحداث التغيير العام في شتى المجالات،على ضوء ما يمكن أن يصيب ذلك النسق من العمران البشري،في حال دراسة كل من التاريخ وعلم الاجتماع منفردا والاكتفاء بسفاسف الأحداث دون الذهاب إلى تحليلها والاعتبار منها.

خاتمة:

في الأخير يمكننا القول أن ابن خلدون وانطلاقا من كونه مؤرخ،ألَّف كتابا ضخما في التاريخ جعل غُرَّته جزءً هاما،يكاد يكون لوحده منهلا تاريخيا واجتماعيا فريدا من نوعه،أبرز فيه ماهية التاريخ،ومدى أهميته كعلم يدرس أخبار الماضي، ويعالج الحاضر مما قد يصيب العمران البشري من مهالك، يمكنها أن تودي به، ولا يتم ذلك إلا بتحليل الحادثة التاريخية في نسق اجتماعي[35]،تُستقى منه العِبر وتستخرج منه النظريات الهامة،التي جعلت من الفكر الخلدوني رغم تقادم عهده الزمني،يظل فعَّالا ومتجددا يناسب مختلف

الهياكل العمرانية البشرية الراهنة،وإنما تأتى ذلك لابن خلدون نتيجة حسن تدبر وتحليل للحوادث التاريخية،التي عاصرها أو كان قريبا منها،أو حتى تلك التي استقى معلوماتها من كتب التاريخ السابقة لعهده،فالأحداث التاريخية التي ميَّزت مجتمعات المغرب الإسلامي في العصر الوسيط،وما صاحبها من علل وأسباب،جعلت من ابن خلدون بعد تحليلها ربطا بالواقع،واستشرافا للمستقبل قياسا على الحاضر–الذي هو ماضي بالنسبة لنا اليوم– يصل إلى نتائج جد مهمة ترسم هندسة فريدة تضمن على الأقل النأي بالمجتمع عن المهالك المفنية،وهو ما أبدع فيه من خلال علمه الجديد "الاجتماع الإنساني والعمران البشري"،وما كانت دراسته للخبر التاريخي ونقده إلا لغرض فهم طبائع العمران، ويمكننا في الأخير أن نخلص إلى بعض النتائج حول نظرياته الاجتماعية الإسلامية–كونها نابعة من مفكر وعالم مسلم جعل من تاريخ العالم الإسلامي حقلا لتجربة التحليل الاجتماعي التي طبقها على أخباره ،متخذا منها مادة أولية لعلمه الجديد– ذات الفحوى البنَّاء والمتجدد بما تحمل من غايات وأهداف لتنمية المجتمعات الإسلامية عامة والعربية خاصة ،وكل ذلك من خلال تنبهنا لعمق آراء ابن خلدون وأفكاره حول علمه الجديد ومبادئه،وكذا اقتفاء آثاره في تحليل الحوادث التاريخية الماضية وحتى الراهنة وعدم الاكتفاء بقبولها وإنما استنطاقها واستقرائها،وما تلك النظريات السالفة الذكر سوى فيض من غيض،وجزء يسير مما حاولنا التعريج على ذكره في هذه الأسطر.

ــ التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو العمران البشري،ومن ثَمَّ فإن تنقيته من الزيف وتصويب أحداثه يشكلان المنطلق الأول لتصور العمران البشري،ولذلك وضع ابن

خلدون منهجا لتصحيح أحداث التاريخ وأخباره يقوم على الجرح والتعديل والتحليل واستنطاق الأحداث للوصول إلى صواب الاستنتاج.

ـ الإنسان مدني بالطبع،ومن ثم كان لابد من أن يعيش وسط مجتمع يسري في حدوده التعاون على إنتاج القوت،وبالتالي التطور في أساليب العيش لتصبح أكرم،متخذا في ذلك جل الوسائل التي تضمن له الدفاع عن حياته،والاستمرارية فيما يكفل له إعمار الأرض والاستخلاف بها.

ـ يتشكل العمران في أصله من قسمان، بدوي وحضري،يشكل الثاني غاية الأول،ويشكل الأول أصل الثاني ومنهله،يختلف كل منهما عن الآخر في أساليب العيش وعادات وسلوكات أفراده، وذلك لما تفرضه الطبيعة على كل منهما،وإن كانت أقل وطأة ولينا في المجتمع الحضري،كونه أكثر قابلية للتغيير والتطور من المجتمع البدوي، ما قد يؤدي به إلى مسالك الملك والدولية، لكن ذلك سرعان ما يتقلص وينحسر في أقسى توسعاته،ما قد يشكل قانونا ثابتا لقيام وتداعي الدول.

ـ لا يتطور العمران البشري ويرتقي إلا بالاعتماد على مختلف الصنائع،التي توفر أكبر قدر من الكسب،خاصة الاقتصادية منها،ما ينعكس بالرفاء على المجتمع.

ـــالعصبية تؤدي إلى المنعة والغلبة،والعصبية تسمو إلى الرياسة،والرياسة تبعث على التطلع إلى الملك،ومن ثم فإن الملك لا يقوم أصلا بغير العصبية،ويظل قويا بقوتها ويضعف بضعفها[36].

ـــ القرآن أصل هام لفهم الظواهر الاجتماعية الماضية وحتى الحاضرة واستشراف المستقبل،انطلاقا من حسن تدبر آياته،والدين الإسلامي بقواعده الأساسية أساس كل نهضة وأقوى عصبية يمكن للمجتمعات الإسلامية والعربية خاصة أن تقوى وتشتد إذا ما تمسكت به، وعادت إلى مقوماته وتركت ما دونها من عصبيات جنسية وعرقية لا طائل منها سوى زيادة الهوة والفرقة بين أفراد المجتمع الواحد ناهيك عن الأمة الواحدة.

الهوامش:

[1] – عبد الله العروي، ابن خلدون وماكيافيللي، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار الساقي،ط:01، 1990م،ص:.09

[2]– سامية حسن الساعاتي،ابن خلدون مبدعا(قراءة جديدة لفكره ومنهجه في علم الاجتماع)،المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة– مصر،2006م،ص:.36

[3]– سورة البقرة،الآية:251.

[4]– سورة يوسف،الآية:14.

[5]– سامية حسن الساعاتي،المرجع نفسه،ص:39

[6]– السُّوقَةُ: بمنزلة الرعية التي تسوسها الملوك،سُمُّو سوقة لأن الملوك يسوقونهم،فينساقون لهم،فيُقال للواحد سُوقة وللجماعة سُوقَة.ينظر:ابن منظور،لسان العرب،تحقيق:عبد الله علي الكبير وآخرون،دار المعارف،القاهرة– مصر،مادة:سوق،ص:2156.

[7]– الأغفال: هي جمع غُفْلٍ،أي غير المسمى ولا المعروف،أي المجهولون.ينظر: ابن منظور،المصدر نفسه،مادة:غفل،ص:3278.

[8] – الأقيال: ملوك باليمن دون الملك الأعظم،واحدهم قِيلٌ،ويكون ملكا على قومه ومِخْلاَفُهُ، وهو الملك من ملوك الحيرة يَتَقَيَّلُ من قَبْلَهُ من ملوكهم يشبهه، وجمعه أقيال. ينظر: ابن منظور، المصدر نفسه، مادة: قيل – قول،ص:3780– 3798

[9] – خليق:يُقال خَلِيْقٌ لكذا أي جدير به.ينظر: ابن منظور، المصدر نفسه، مادة : خلق، ص:1247.

[10]– عبد الرحمان بن محمد بن خلدون،مقدمة ابن خلدون ،ج:01، تحقيق: أ.م.كاترمير، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان،1992م،ص:02.

[11]– "...فللعمران طبايع في أحواله يرجع إليها الأخبار وتحمل عليها الروايات والآثار..."،ينظر:عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:01،ص:04.

[12]– "...وأنا المفلس أحسن السوم فأنشأت في التاريخ كتابا رفعت فيه عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا،وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا،وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا،وبيَّنته على أخبار الجيلين الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار، وملؤا أكناف الضواحي منه والأمصار،وما كان لهم من الدول الطوال والقصار،ومن سلف لهم من الملوك والأنصار،وهما العرب والبربر،إذ هما الجيلان الذان عرف بالمغرب ماواهما وطال فيه على الأحقاب مثواهما...".ينظر:عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:01،ص:05.

[13] – "يظهر مما كتبه ابن خلدون في المقدمة أنه كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظاهر الاجتماعية وشمولها لجميع الأنواع،وأنه لم يغادر أي قسم من أقسامها إلا عرض له بالدراسة".ينظر:جورج لابيكا،السياسة والدين عند ابن خلدون،تعريب:موسى وهبة وشوقي الدويهي،دار الفرابي،بيروت– لبنان،ط:01، 1980م،ص:.82

[14] – محمد العبده، البداوة والحضارة نصوص من مقدمة ابن خلدون،المنتدى الإسلامي،لندن– بريطانيا،ط:01، 1993م،ص:.60

[15] – عبد الرحمان ابن خلدون،المصدرنفسه،ج:02، ص:526.

[16] –هو المجتمع بتعريف بسيط في حين يُعرفه ابن خلدون قائلا:"العمران هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش".ينظر:عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:01، ص:.67

[17] – عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:02، ص: 892.

[18] –"أما الظواهر الاجتماعية في بني الإنسان فلم يفطن أحد من قبل ابن خلدون إلى خضوعها لقوانين كسائر الظواهر الأخرى،وبالتالي لم يعن أحد من قبله بالكشف عن هذه القوانين".ينظر: جورج لابيكا ،المرجع نفسه،ص:.86

[19] – " تطلق كلمة القوانين في العرف العامي على الأصول العامة التي تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها،والمقدمات بنتائجها اللازمة،أو بعبارة أخرى التي تنبئ بحدوث نتائج معينة لازمة،إذا حدثت أسباب خاصة،وترجع النتائج الحادثة إلى أسبابها، او كما يقول مونتسكيو:" التي تعبر عن العلاقات الضرورية التي تنجم عن طبيعة الأشياء".ينظر:جورج لابيكا ،المرجع نفسه،ص:84.

[20] – "يرمي ابن خلدون في مقدمته من وراء دراسته للظواهر الاجتماعية إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها وما يعرض لها من أحوال".ينظر: جورج لابيكا، المرجع نفسه،ص:.84

[21] – سامية حسن الساعاتي،المرجع نفسه،ص:.47

[22]– سامية حسن الساعاتي،المرجع نفسه،ص:55 بتصرف.

[23]– عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:01، ص:.67

[24] – "...اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش،فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون وتحصيله".ينظر:عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:01،ص:.22

[25] – سامية حسن الساعاتي،المرجع نفسه،ص:77

[26] – عبد الرحملن ابن خلدون ،المصدر نفسه،ج:01، ص:224.

[27]– سامية حسن الساعاتي،المرجع نفسه،ص:78.

[28] – عبد القادر جغلول، الإشكاليات التاريخية في علم الإجتماع السياسي عند ابن خلدون،دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية،ط:02، 1981م،ص:.30

[29] – "غفل عدد غير قليل من الدارسين إلى أن الأداة التي توسلها ابن خلدون للوصول إلى نظريته الجديدة أو علمه الجديد،هي علم التاريخ بعد تجريده من الأخبار الخاطئة والأحداث الزائفة". ينظر: مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته،الدار المصرية اللبنانية،ط:03، 1992م، ص:37، 38.

[30]– عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:01،ص:08.

[31] – "إن منهج ابن خلدون في نقد التاريخ دقيق،مع استفاضة في البيان وثراء في ضرب الأمثال التي يستقيها من الأخبار المسطورة في كتب المؤرخين السابقين...ولا يقف الأمر بابن خلدون عند نقد الروايات التاريخية وتجريحها ثم رفضها،وإنما يدلف إلى بعض ما ذكره المفسرون أيضا،ولم يكتف ابن خلدون بالوقوف عاند أخطاء بعض المؤرخين وإنما عمد أيضا إلى الفصول التي تحمل عناوين متصلة الأسباب بالعمران،مثل الفصل الذي عقده عن"طبيعة العمران والخليقة" ليسهب القول عن التاريخ باعتبار أنه خبر عن الاجتماع

الانساني، أي أن التاريخ هو وسيلة كل إنسان للتعرف على المجتمعات الإنسانية من خلال دقة الخبر وصدق الرواية،ويستعرض أمثلة من أخبار التاريخ ووقائعها حسبما رواها بعض المؤرخين ويخضعها للأسس النقدية التي وضعها". ينظر: مصطفى الشكعة، المرجع نفسه،ص:40، .41

[32] – عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:01،ص:.02

[33]– عبد الرحمان ابن خلدون،المصدر نفسه،ج:01،ص:08، .09

[34]– عبد القادر جغلول، المرجع نفسه،ص:.31

[35]– " وليس من شك في أن المحاولات الجادة التي قام بها ابن خلدون في هذا الميدان قد جعلت منه صاحب منهج دقيق في التحليل،ورؤية صادقة في الاستنتاج،ونعني بذلك استقراء أحداث التاريخ وتحليلها واستنطاقها،وفرز الحقائق،والتنبه إلى الأكاذيب،ثم استثمار العطاء التاريخي في النطاق الاجتماعي الإنساني،وتوصل ابن خلدون من خلالها إلى النتائج التي صارت فيما بعد منهجا اختص به، وقوانين عُزيت إليه". ينظر: مصطفى الشكعة، المرجع نفسه،ص:.51

[36] – مصطفى الشكعة، المرجع نفسه،ص:.77.